المشرق

قبل الولادة وبعد الموت

ردٌّ على المقتطف

للاب انطون صالحاني اليسوعي

يذكر القراء موضوع هذه المسألة التي تكلمنا عنها من نحو سنة . كان أورد المقتطف في عدده المؤرخ في كانون الاول ١٩٠٥ قصّة « الفتاة التي كانت تنام النوم المغنطيسي وتدّعي انها تعود الى ما كانت عليه قبل ولادتها الاخيرة » وصدّر القصة بتمهيد وجيز سأل فيه « اين كانت نفوسنا قبلما ولدنا والى اين تذهب بعد ما نموت . او ليس لنا نفوس وكلّ ما فينا اجسام تتولّد وتنمو ثم تموت وتتحلّل وترجع عناصرها الى الارض التي أُخذت منها . هذه مسألة المسائل ومعضلة الفلاسفة وما من احد بلغ الخمسين او الستين الّا وقف واستوقف وقال الى اين نحن مسوقون اين كنّا والى اين نمضي وما معنى هذا التعب وهذا الجهاد » . وكنّا استحسنّا السؤال واستهجنّا الجواب ولُمنا المقتطف على انهُ اجاب بخفّة وفنّدنا مزاعمه بالبراهين الواضحة وبيّنّا اوّلا ان اكثر الاديان شهرةً في العالم تتفق في تعليمها بأن نفس الانسان مخلوقة من الله رأساً لا تموت بانفصالها عن الجسد بل تبقى حيّة لتنال جزاء ما قدّمتهُ في وقت اتحادها مع الجسم من خير او شرّ . وبيّنّا ثانياً ان المسألة ليست دينيّة بل فلسفية تُثبت بالبراهين العقلية والقياسات المنطقيّة وان كل العلماء الجديرين بهذا الاسم اعتبروا « مسألة المسائل ومعضلة الفلاسفة » اي ماهية النفس لا دينيًّا بل عقليًّا واثبتوا عن النفس ما يقولهُ ويعتقدهُ كل انسان عاقل اي ان الله خلق النفس روحاً حيّة ناطقة مميّزة عن المادة لتتحد بالجسم فلا تبيد ولا تتحلّل بعد انفصالها عنهُ بالموت بل تبقى الى الابد . كل ذلك يذكرهُ

قرّاء المشرق. فلمّا اطلع المقتطف مؤخّرًا على جوابنا عاد فكتب في الموضوع ذاته في عدده الصادر في تشرين الاول وافاض في الشرح معتمدًا على العلم الطبيعي وحده فلم يجد نفعًا سوى انهُ زاد الموضوع ابهامًا

ولم يُشر المقتطف في مقالته الاولى الى « الالهام الالهي » فادخلهُ هذه المرّة في البحث قال: « ان الاديان المختلفة تحلّ هذا السؤال على اساليب مختلفة لا تخرج عن كونها حدسًا وتخمينًا او علمًا عاليًا غير مبني على الحسّ والمشاهدة. والمراد بالاديان المختلفة اديان البشر كلهم اديان اهالي الصين واليابان والهند وجزائر البحر واهالي افريقية وسكان اميركا الاصليين واليهود والنصارى والمسلمين. فهذه الاديان كلها تحلّ ما سمّيناه بمسألة المسائل ومعضلة الفلاسفة على اساليب مختلفة بعضها حدس وتخمين وبعضها علم عالٍ غير مبني على الحسّ والمشاهدة بل على الالهام الالهي. والمراد بالعلم في ابحاث المقتطف العلم الطبيعي المبني على التجربة والامتحان والاستقراء وهذا هو المعنى المعروف بهِ الآن عند الاطلاق تمييزًا لهُ عن علم ما وراء الطبيعة »

فالمقتطف أطلعنا بقولهِ هذا على السبب الذي جرّهُ الى الغلط لانهُ عند ما يقسم العلم الى علم طبيعي وعلم ما وراء الطبيعة يدرج في علم ما وراء الطبيعة « الالهام الالهي والاعتقاد الديني والوحي والايمان » كما يتّضح من بقيّة كلامه لانهُ يسكت فيما بعد عن هذا العلم وموضوعهِ ويقابل فقط ما بين العلوم الطبيعية والاديان والوحي والالهام الالهي. وهذا خطأ لا نرضاهُ لهُ. لان الحقائق التي يتناولها علم ما وراء الطبيعة هي حقائق فلسفيّة عقليّة محضة لا دخل فيها للوحي والايمان كما فهم الفلاسفة كلهم من زمان ارسطو الى ايامنا. ومن جملة هذه الحقائق وجود النفس وماهيتها ومصدرها وقواها ومصيرها. وقد طالما تكلّم وكتب عن هذه الحقيقة فلاسفة وثنيّون لم يكونوا يعرفون الوحي وتعرّض لها فلاسفة يهود ونصارى ومسلمون يسلّمون بالوحي لكنهم بحثوا عن هذه المسألة بقطع النظر عن الوحي والايمان. فبكل حقّ نؤاخذ المقتطف لا على انهُ يرفض الوحي الالهي ويزدري بهِ (وهو في هذا ملوم) بل لانهُ يأبى الاستعانة بالعلوم العقليّة ليعرف وجود النفس وماهيتها مكتفيًا بالبحث عن هذه الحقيقة بالعلوم الطبيعيّة المبنيّة على الحسّ والمشاهدة والاستقراء كالفيسيكا والكيمياء والفسيولوجيا والجيولوجيا وعلم الهيئة وما اشبه. وموضوع هذه العلوم حسّي ومادّي فيتعذّر عليها معرفة ماهية

النفس الروحية . فكأني به جرّاح ينفي وجود النفس في الانسان لان مبضعه لم يعثر عليها كما يعثر على اللحم والعصب والعظام . ومن ثمّ يتّهم علماء الاديان بانهم يعتقدون بوجود النفس اذعاناً للوحي الالهي وهم ابرياء من هذه التهمة . ويتكلّم كأنّهُ خالٍ عن العلوم الطبيعيّة والوحي الالهي لا توجد علوم اخرى عقلية تمكننا من معرفة النفس . ومن المقرّر الذي لا يختلف فيه اثنان انهُ توجد حقائق عديدة ثابتة لا حاجة الى الوحي لمعرفتها ولا قدرة للعلوم الطبيعيّة على إدراكها واثباتها

فلا يخفى ان العلم يُقسم الى علم طبيعي وعلم ما وراء الطبيعة او ميتافيسيكا . فالعلوم الطبيعيّة تبحث عن الموجودات المادية وكيفياتها وخصائصها من حيث وقوعها تحت الحواس . اما علم ما وراء الطبيعة فيبحث عن المعقولات المجرّدة عن الطبيعة المادية مثل الله عزّ وجل من حيث يُعرف بنور العقل وصوَر الممكنات والنفس الانسانية وقواها وسائر الاشياء غير المحسوسة مثل الكليات والبديهيات اي الحقائق التي تدرك بديهاً وتُعرف من غير برهان ومعنى الوجود والممكن وجرده والصلاح والشرّ والجوهر والعرض والنسبة وعلم جرًّا

فلماذا رعاهُ الله لدى ذكرهِ العلم وتمييزهِ اياه الى علم طبيعي وعلم ما وراء الطبيعة افاض في تعداد الامثلة عن كيفية ادراك الامور بالحسّ والمشاهدة والاستقراء والامتحان ولم ينطق ببنت شفة عمّا يمكننا معرفتهُ بعلم ما وراء الطبيعة متخطياً الى الوحي والاديان ولا دخل للدين والوحي في علم ما وراء الطبيعة . وكلّ من لهُ بعض الالمام بالعلوم الطبيعية يعلم كما يعلم المقتطف ان الصوت يحدث من ارتجاج الاجسام والصور تُرى في المرآة بانعكاس النور وان ملح الطعام مركّب من الكلور والصوديوم والماء من الاوكسجين والهيدروجين وان الطعام بعد هضمهِ يتحوّل الى دم يغذي الجسم وان هذا الدم يطهَّر في الرئة بواسطة اوكسجين الهواء الذي نتنفّسهُ . ونعرف هذه الامور بعلم الفيسيكا والكيمياء والفسيولوجيا المبنيّة على الحسّ والمشاهدة . ولكن حتى في الامور الحسيّة لا تكفي هذه العلوم دون الاستعانة بعلم ما وراء الطبيعة . لانهُ بدونهِ لا يمكننا ان نعمّم الحوادث لنقرّر نواميس عموميّة ولا ان ننتقل من المعلول الى العلّة ولا ان نميّز العرض من الجوهر . وكثيراً ما نستعين بالعقل لنصلح غلط الحواس

فاذا كان لا بدّ من العقل ومن علم ما وراء الطبيعة حتى في ما يُدرك بالحسّ فما

قولك في معرفة الجواهر الروحية التي لا تقع تحت الحسّ . وعليه فما عدا العلوم الطبيعيّة توجد علوم اخرى لا دخل فيها للحس والمشاهدة والامتحان بل للعقل وحده بمعزل عن الوحي والايمان . فبالعقل نعلم حقائق عديدة اعمّ واسمى مما نعلمهُ بالحسّ والمشاهدة . فلمَ لم يأتِ المقتطف بذكر هذه العلوم كأن لا وجود لها

فهذه حقيقة وجود الله عزّ وجلّ أنبئني بأيّ طريقة وصل الانسان الى معرفتها . أبالعلم الطبيعي المبني على التجربة والامتحان أبعلم الفيسيكا والكيمياء والفسيولوجيا والجيولوجيا المبني على الحسّ والمشاهدة . فكما انّ البشر اتصلوا دون العلم الطبيعي الى هذه الحقيقة العلميّة المقررة كذلك اتصلوا الى معرفة وجود النفس وماهيتها بالبراهين العقليّة والقياس دون احتياجهم الى العلم الطبيعي . ولا حاجة الى الاديان والوحي في هذه المسألة فان حقيقة النفس عرفها الوثنيّون فضلًا عن اليهود والنصارى والمسلمين . وكفانا ان نستند الى العقل لتعلمها

وما قولك عمّا اضافهُ المقتطف : « والعلماء المشتغلون بهذه العلوم (يريد العلوم الطبيعية) قد يشتغلون ايضاً بالعلوم الفلسفيّة او الدينيــة ويعتقدون ان ارواح الابرار تدخل في اجسام طيور خضر بعد خروجها من اجسادهم او يعتقدون انها تمضي الى جنّات . . . او الى مدينة من الذهب النقي سورها من يشب واساساتها من الحجارة الكريمة . لكن اعتقادهم هذا لا يكون مبنيًا على العلم الطبيعي اي على الفلسفة الطبيعيّة والكيمياء والفسيولوجيا والجيولوجيا والبيولوجيا والنبات والحيوان او نحوها من العلوم الطبيعيّة المبنيّة على الحسّ والاستقراء والامتحان . بل على اعتقاد ديني او الهام الهي او شعور باطني مهما كان نوعهُ » فهذا الكلام وان قيل عن غير المسيحيين يشتمّ منهُ رائحة التهكم الغير اللائق فكم بالحري اذا قيل عن كتبنا المقدسة سيّما اذا اعتبرنا ان مسألة النفس فلسفيّة لا دينيّة . فليحكم القارئ إن كان هذا هو حقيقةً ملخّص كل ما كتبهُ في علم ما وراء الطبيعة او الميتافيسيكا وعلم النفس او البسيكولوجيا فلاسفة مشتهرون لا يحصى عددهم . او سواء لدى المقتطف الفلسفة والدين . واي فيلسوف يقول عن نفوس الابرار انها تدخل في اجسام طيور خضر او تذهب الى مدينــة من ذهب . فاننا نجلّ المقتطف عن جهل هذا الامر . وكأنّ المقتطف رأى التهكم برهاناً فالتجأ اليهِ مرّة اخرى فقال : « ولا يخفى انــهُ اذا قال علماء اللاهوت . . . ان نفوس الابرار تقيم

حول العرش والقيثارات في يدها تسبح الله وتمجده . . . لا يثبتون قولهم هذا بالادلة الطبيعيَّة بل بالنصوص الكتابية »

نقول ان كل مسيحي ولو كان ساذجاً يعرف حقّ المعرفة ان ما جاء في رؤيا يوحنا من الوصف لاورشليم السماوية هو رمز او اشارة لمعانٍ سامية مفادهُ تسبيح الله وراحة وسعادة الابرار . فلو افرط وغالى مقرّظ في قوله ان المقتطف نسرٌ يحلّق في جوّ العلوم او شمسٌ تنير باشعَّة المعارف فمن من الناس يا ترى يفكّر في كونه نسراً يحلّق في الجوّ او شمساً ترسل اشعَّتها على الارض . أفلا يفهم الولد نفسهُ انها استعارة . فلماذا يحظر على كاتبي الاسفار المقدَّسة استعمال الرموز والتشابيه والاستعارات الواردة فيها بالمعنى المجازي لا بالمعنى الحقيقيّ . فكان الأليق بالمقتطف ان ينهمها كذلك اجلالاً لكرامتها وحفظاً لكرامته وان يميّز الوحي من الفلسفة

فبعد ما سبق لنا تبيانهُ لا نستغرب خطأ المقتطف فانهُ صادر عن مقدمات فاسدة فلا عجب ان تكون النتيجة فاسدة . اما المقدمات الفاسدة التي يردّدها معتصماً بها فهي انهُ لا علم الَّا بالحس ولا معرفة الَّا بالمشاهدة والامتحان والاستقراء . وانَّ الفلسفة غير الطبيعيَّة اي الفلسفة الحقيقية هي والوحي والدين شيء واحد . هذا ما يستخلص من مقالة المقتطف وقد برهنَّا فسادهُ . ولهذا تراهُ حائرًا تائهاً مستمدًّا من العلوم الطبيعية ما لا تقدر على منحهِ غائصاً في المادة غير بصير بالمعقولات لا يهتدي الى معرفة حقيقةٍ يمتنع إدراكها بالحسّ والعلم الطبيعي . وقد اظهر ذلك في كلامهِ عن تولُّد الانسان . فانهُ بعد وصفهِ تكوُّن الجنين في بطن أمهِ الى ان يولد قال :

« كل هذه الامور بحث عنها علماء الاجنَّة وعلماء الوراثة وعلماء الفسيولوجيا وعلماء السيكولوجيا الحديثة فعرفوا احوالها ونواميسها اي اسبابها ومسبباتها والقوانين التي تتمشَّى عليها ولكن في اي يوم تحلّ النفس في هذا الجسد واين يكون مقرها منهُ واين كانت قبلما حلَّت فيهِ وما هي حقيقتها وهل تنمو بنموهِ او تبقى على حالة واحدة من حين كان نطفة او جنيناً او طفلاً الى ان يبلغ اشدهُ الى ان يكهل وتتكامل قواهُ العقليَّة الى ان يشيخ ويضعف الى ان يموت . واين تمضي بعد ان يموت واين كانت نفوس الالف والخمس مئة مليون من الناس الموجودين الآن على وجه البسيطة والذين لم يوجد انسان واحد منهم منذ مئة وعشرين او مئة وثلاثين سنة

« هذه المسائل كلها هل يمكن حلها بالعلوم الطبيعيّة بالكيمياء والفسيولوجيا والجيولوجيا وما اشبه او هل يمكن حلها بشيء ممّا يقع تحت الحس والمشاهدة اي هل يمكن ان نشعر بنفس الولد قبل ان يتصوّر في بطن امه ونتأكد اننا غير مخدوعين في شعورنا هذا بل هو حقيقة بالنسبة الينا مثل الشعور بوجود الكتاب والقلم والقرطاس. ونشعر بها ايضاً بعد خروجها من جسم الانسان ونتأكد وجودها كما نتأكد وجود الحيوان والنبات والجماد والنور والصوت والكهربائيّة »

نقول انهُ لا احد ينكر ان علم الفسيولوجيا يتصل الى معرفة تكوين الجنين في بطن امه ولكن اني يتسنّى لهُ معرفة النفس. فاذا كنت تنكر مع الماديين والطبيعيين وجود نفس روحية في جسم الانسان فصرّح عن فكرك وأفصح في مقالك ولا تكن كمن يستحي ممّا يقولهُ فيورد آراء مبهمة هي شرّ من التصريح لانها تمرّ على عقول السذّج فتغشّيهم . امّا اذا كنت تسلّم بوجود النفس الروحيّة فاجبني بحياتك أمن المعقول ان تدركها بالحس وتعرفها بالمشاهدة. والروح بسيطة غير ماديّة لا تُنظر بالعين ولا تُلمس باليد ولا تشاهد بالمكروسكوب ولا تشرّح بالمبضع ولا تحلّل بالعوامل الكيماويّة ولا تكشف بالنور لا شكل لها ولا لون ولا طعم ولا صوت ولا ولا. . .

وكأنّ المقتطف يرى رأي افلاطون في وجود النفوس مذ خلق الله العالم نيرغب ان يعرف اين كانت قبل اتحادها بالجسم واين تذهب بعد الموت ولذلك يرصدها بالتيلسكوب ليراقب حركاتها. او كأنهُ يذهب مذهب اصحاب التقمّص. فلا عتب عليهِ اذًا سوى انهُ لم يتحقق رأي افلاطون ولا مذهب التقمّص ببرهان من البراهين التي تروق في عينيهِ لا بالحس والمشاهدة والامتحان ولا بعلم من علوم الطبيعة. وعلى كلّ فان رأي افلاطون ومذهب التقمّص وإن فاسدَين يفترضان وجود نفوس روحيّة مميّزة عن الجسد كل التمييز. وعليهِ فسؤال المقتطف: « افلا يمكن ان يكشف سبيل علمي الى ما كنا عليهِ قبلما وُلدنا وكذلك ألا يمكن ان يوجد سبيل علمي طبيعي لمعرفة ما يمكن ان نصير اليهِ بعد الموت لا من حيث اجسادنا فاننا نعلم انها تنحلّ ويأكلها الدود وينتذي بها النبات بل من حيث نفوسنا » فهذا السؤال لا امكان للمقتطف ان يجيب عليهِ ابد الآبدين طالما لا يطلب الجواب الّا من العلوم الطبيعيّة فانها قاصرة عن معرفة ما

هو روحي محض وعن أداء الجواب فتترك الملتحي اليها متحيرًا لا يهتدي الى النور

اما عالم ما وراء الطبيعة فقادر على أداء الجواب وقد أتى به صريحًا منذ عصور عديدة بل منذ وُجد عقل يفتكر ويتأمل ويتفلسف فيستخرج من مقدمات صحيحة نتائج صحيحة . فعلى محرري المقتطف ان لا يكتفوا بالعلوم الطبيعيَّة بل يتصبّوا على عالم ما وراء الطبيعة ويذعنوا للقياسات العقلية المنطقية فانها اقوى واثبت مما يلمسهُ الحسّ

ثم ان ما رسمهُ المقتطف من الصوَر ليبيّن المماثلة بين جنين الكلب في الاسبوع الرابع وجنين الانسان في الاسبوع الرابع ايضًا والمماثلة بين جنين الكلب في الاسبوع السادس وجنين الانسان في الاسبوع الثامن لا يجديهِ نفعًا لتقرير شيء في المسألة الخطيرة التي نبحث عنها . افيظن المقتطف ان المماثلة بين جنين الكلب وجنين الانسان تبرهن ان نفس الانسان كنفس الكلب . حاشاه من ذلك . ومن ثم لا نعلم ما فائدة هذه الرسوم في مسألة النفس الّا اذا كان يرغب ان يبهر العيون بمظاهر العلم والمعارف فيحمل القرّاء على التصديق بانَّ كل ما يقولهُ هو العلم . فلا يخفى عليهِ انَّ كثيرًا من النبات لمَّا ينجم ويبدو نابتًا في الارض لا يتميَّز عن بعضه في الظاهر مثل النخل والقمح . أفيكون هذا دليلًا على انهما من نوع واحد او من جنس واحد او من سبط واحد او من فصيلة واحدة او من صفّ واحد فانهما لا يتفقان الّا في الرتبة فقط في كونهما من النباتات ذوات الفلقة الواحدة . ولا بد من ان اجنَّة الحيوان تتشابه في بادئ امرها ولكن لا تلبث ان تتميز . ويعلم المقتطف ان أجنَّة الحيوانات ذوات الانسدي (والانسان منها) كلما اقتربت من بدء تكوّنها تكون المماثلة بينها اعظم حتى انَّ من يفحص بالمكروسكوب بُويضاتها لا يجد بينها فرقًا . وبما ان الاجنَّة تتميَّز فيما بعد عند نموّها فلا بد من ان يكون هناك مبدأ غير المادة هو سبب تمييزها . ولمَّا كان الانسان حيوانًا فطبيعيٌّ ان يشبه جنينهُ جنين الحيوان لكن بما انهُ حيوان ناطق فمن اللازم ان تكون فيهِ نفس روحية لا توجد في الحيوان غير الناطق . لكن لماذا تكلّم المقتطف عن الجنين وبوسعهِ ان يتكلّم عن الحيوان بعد الولادة . فان بعض القردة هو شديد المماثلة في جسمهِ لجسم الانسان . افيمكن المقتطف ان يستنتج من هذه المماثلة فائدةً لما يريد اثباتهُ بخصوص نفس الانسان . فما قصدهُ اذًا من وضع هذه الرسوم ومن التصريح بان الاجنَّة متماثلة وبأن علم الفسيولوجيا يعلمنا ذلك . فان علم

الفسيولوجيا يقف عند حدٍّ معلوم. فيعلّمنا كيف يتكوَّن الجنين وينتذي وينمو وتتنوَّع اجزاؤهُ. الخ. اي انهُ ينبئنا بكل ما يُشاهد ماديًّا. لكنهُ لا يصل الى حلّ مسألة النفس فيترك البحث عنها وتقرير هذه الحقيقة لعلم آخر اسمى من العلوم الطبيعيَّة

هذا واننا نشكر المقتطف على شعاع نورٍ اضاء في مقالتهِ وهو انهُ في سؤالاتهِ المتحيّرة عن النفس اقرَّ بوجودها اذ قال: «وبديهيٌّ ان قول بعض العلماء انهُ لا توجد أدلَّة طبيعيَّة يثبت منها اين كانت نفس الانسان قبلما تصوَّر في بطن امهِ والى اين تذهب بعد ما يموت لا ينفي وجود النفس بل انما ينفي وجود الادلَّة الطبيعيَّة المشار اليها» فنثني عليهِ لانهُ لم ينكر وجود النفس رغمًا عن اقرارهِ بعدم وجود الادلَّة لاثبات هذه الحقيقة من العلوم الطبيعيَّة التي يعتمد عليها وحدها. فلا ندري على اي علم يعتمد في اثبات وجود النفس. على اننا نخشى انَّ المبادي التي يتبعها المقتطف تؤدي بهِ وبقرَّائهِ شيئًا فشيئًا الى انكار حقيقة النفس الروحية

ومع ذلك يسرّنا ان ندوّن اقرار المقتطف بوجود النفس. لكنَّا لا نسلّم لهُ بما قال بُعيد ذلك: «ويرى كثيرون من علماء الاديان ان المعتقدات الدينيَّة يجب ان لا تعتمد على علم طبيعي ولا على حكمة الناس بل على الوحي والايمان» فقولهُ هذا غير سديد. فان علماء الاديان يستعينون بالعلم الطبيعي لاثبات الحقائق التي يستطيع معرفتها. وبعلم ما وراء الطبيعة لتقرير واثبات الحقائق التي يقصر عنها العلم الطبيعي مثل وجود الله ووجود النفس المخلوقة منهُ تعالى رأسًا. ويستعينون بالايمان والوحي في قبول الحقائق التي تفوق العلوم الطبيعية وادراك العقل البشري اذا اوحاها الله للبشر وتأكّدوا وحيهُ بالادلَّة المنطقيَّة والمعجزات والنبوات. فقد اتضح اذًا ان حقيقة وجود النفس ليست مختصةً بالمعتقدات الدينيَّة بل انَّ المعتقدات الدينية تفترضها مقررةً ومثبتةً بالبراهين العقليَّة الراهنة

فإمَّا ان المقتطف لا يفهم اقسام هذه العلوم وحدودها. واما انهُ يتظاهر بجهلها. فلا يبقى الَّا ان نطلب الى الله ان يهديهُ الى الصواب